وزارة التعليم والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان

وبالتعاون مع فرقة البحث PRfU

الملتقى الوطني حول : أنثروبولوجيا الأديان ودراسة ثقافة المجتمع الجزائري

الدكتور: عبد الله بلمهدي

كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

عنوان المادخلة: المنهج الأنثروبولوجي في تشخيص مالك بن نبي

لحالة المجتمع الجزائري إبان الإحتلال الفرنسي

نص المداخلة

بما أنّ علم الأنثروبولوجيا في بعض اهتماماته يبحث فيما يعتقده الناس من الأديان ، و يعمل على توصيفها توصيفا دقيقا من حيث مدى ضروريتها في حياة الفرد و المجتمع ، و مدى تأثيرها على مكونات ثقافة الشعوب ، كما يدرس تاريخ نشأة الدين و تطوراته و دوره في الحياة اليومية للأفراد و المجتمعات ، كما يبحث عن علاقة الأديان بعضها ببعض من حيث قضايا الاشتراك و الاختلاف ؛ لكن هذا العلم ليس من مهمته أن يبحث في مدى صحة الدين ، و ما هو الدين المثالي الذي يجب على الإنسان أن يعيش به و من أجله و يجعله الجزء الأهم في حياته .. لأن حقائقه نسبية في نظرالعالم الانثروبولوجي ؛ كما أنّ الأنثروبولوجيا قامت أساسا على فكّ الارتباط بمعلومات الكتاب المقدس (العهد القديم و العهد الجديد) ، و الاعتماد كليا على النظر الفلسفي الحر و البحث العلمي الذي ينطلق من الإنسان و ما تركه و يتركه من آثار في الأرض ..

أما الأستاذ مالك بن نبي فبعقلية فطرية ذاتية تعامل مع الإنسان معايشةً فردا و جماعة بمنهجية العالم الأنثروبولوجي حين وصف الحالة الاجتماعية و الثقافية للمجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي في كل مراحله ، لا سيما الفترة التي عايشها قبل الثورة التحريرية و أثناء الثورة و بعد الاستقلال ، و هو من مواليد 1905 م يصف الفترة التي سبقت ظهور جمعية العلماء المسلمين وأثناء ظهورها (أي قبل بدو ثمارها) من أربعينيات القرن العشرين بأسوأ فترة عاشها الشعب الجزائري من أحواله المزرية و هي جزء من الفترة التي يسمّيها مالك بن نبي ما بعد الموحدين

العمل الذي خالجته المشاعر و الأحاسيس هو ما ميز دراسة مالك الأنثروبولوجية عن العالم الأنثروبولوجي الحِرَفي المتخصّص .

لقد شخّص مالك حالة الشعب الجزائري في تلك الفترة تشخيصا دقيقا ؛ لأنّه جزائري ، و هو أولى الناس بفهم عقلية الجزائري و تحليل سلوكه .. كما أنّه ركّز على عنصر أساسي في التأثير و له علاقة لا تنفكّ عن الحالة المزرية للشعب الجزائري وهو الاحتلال ، فدرس أفكاره و تبيّن أهدافه و تتبع سلوكه و أدرك تماما أسباب سيطرته .. ممّا ساعده على التشخيص لحالة شعبه تشخيصَ الطبيبِ الحاذق لمرضاه .. و هو ما جعله يخرج بهذا الحكم حين قال : ما كان لفرنسا أن تحتل الجزائر لو لم تكن الجزائر تعاني من أسباب القابلية للإستعمار.

يقول مالك بن نبي و هو ينعى على المثقفين و المصلحين الذين لم يحاولوا أن يفهموا المستعمر : " و الحق أنّنا لم ندرس بعد الإستعمار دراسة علمية ، كما درسنا هو ، حتى أصبح يتصرف في مواقفنا الوطنية و حتى الدينية من حيث نشعر أو لا نشعر " (مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، عمر مساري ، دار الفكر ، ط3 ، 1969م ،ص233)

لقد وصف مالك بن نبي حالة الشعب الجزائري في الثلث الأول من القرن العشرين بالمعاناة من الجهل و الأمية ؛ فلا يعدو أولاد الجزائريين إذا كانوا من عائلات متدينة أن يكون بعضهم حافظا للقرآن حرفا و رسما .. و أما الكبار فيتعلمون من الدين الجانب التعبدي فقط أمّا الجانب الذي يتعلق بالحياة الاجتماعية و الاقتصادية و الوعي السياسي فهذا أمره موكل للأحزاب الجزائرية بل هو خاضع لإدارة الإحتلال ؛ كما بين مالك بن نبي أنّ المجتع كان في تلك الفترة يعاني استحواذ الخرافة و الأوهام و التطيّر بالمظاهر و تقديس القبور و مظاهر الشرك ، و نساؤه

مشغولات بتقديم القرابين للأولياء "الصالحين" ؛ كان هذا الحال بتكريس الطرق الصوفية المنحرفة بتشجيع و دعم الإدارة المخابر الفرنسية ..

يبين لنا الأستاذ مالك أنّ عامة الشعب الجزائري خصوصا في السنوات التي عاشها كمفكر و عالم و باحث لم يكن له طموح لتحرير الوطن ، و لم يكن يتصور هل في إمكانه أن يصبح سيّدا على إمكانيات بلاده و سيدا في استغلال ثرواتها ، أو أن يتعلّم أكثر ممّا تعلمه له فرنسا في مدارسها أو حتى في جامعاتها ؛ و خير دليل على هذا هو ما حصل لمالك بن نبي شخصيا حين أراد أن يتخصّص في علم من العلوم الإنسانية رُفض طلبه ، فاضطرّ أن يغير وجهته إلى تخصص علم الكهرباء ..

أمّا الشريحة الشبانية الجزائرية فكانت مظاهر التدين فيها غائبة عن سلوكها و أخلاقها و حتى على مستوى أفكارها ..كان الشباب غارقا في الشهوات .. خمر و تذخين و قمار ، و و تسكّع في المقاهي و الحانات .. بهذا الخصوص يقول مالك بن نبي : (و بالفعل فإنّ أشكالا جديدة من السلوك بدأنا نراها في الجزائر مثلا و هي ليست من عاداتنا) المرجع نفسه : 235 .

أمّا عن رجال السياسة الجزائرين أيام الاستعمار كان سقف طموحهم المطالبة بالمساواة في حقوق المواطنة مع المستوطنين الحتلاليين .. و هؤلاء يحسبون على الطبقة المثقفة الذين يُنتظر منهم أن يقوموا بعملية الإصلاح لحالة شعبهم من خلال مناصبهم غير أنّهم كانو في وصف مالك بن نبي إلاّ خائنين أو خانعين ..

لكن ؛ لا يفوتنا هنا أن نقول بأنّ مالكا استبشر خيرا مفعما بالأمل عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين على يد ابن باديس رحمهما الله تعالى ، حين توحّدت جهود العلماء في إنقاد الوطن من الجهل و الأمية و نشر الوعي و إحياء علو الدين علما و سلوكا ، و إحياء الضمائر و تعليم الصغار و الكبار ، و الذكور و الإناث .. و إن كان لمالك على الجمعية مآخذ ، فإنّه كثيرا ما أشاد بعملها الجبّار في تنفيذ القاعدة الإجتماعية في التغيير المتمثلة في قوله تعالى : { إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم } الآية .

كل العمل الذي قام به مالك بن نبي في تشخيص حالة الفرد و المجتمع الجزائري كان بمنهج أنثروبولوجي ؛ فكما شخّص الحالة العامة للشعب الجزائري في جميع طبقاته درس أيضا العوامل الثقافية و النفسية و الإجتماعية و التاريخية التي أوصلته إلى حالته المزرية ؛ فعلى سبيل المثال كان ممّا وصفه مالك من الأمراض التي سعى لمعالجتها من خلال مؤلفاته و محاضراته و لقاءاته أنّ المثقفين يقولون كثيرا من الأفكار و لا يهتمون بالعمل ..فعند المثقفين فجوة بين القول و العمل .. و هنا أشار مالك إلى كلمة قالها عميد الاحتلال البريطاني و صدّقه : " إنّي لا أرى في إعطاء الحرية للصحافة أي خطر ؛ لأنّ العربي إذا كتب و هاجم أو خطب شعر بأنّه أدّى واجبه " و علق مالك على هذا القول :" تُروّج في سوق الثقافة آلاف الكلمات غير المرتبطة بالواقع" .

فإذا كان عالم الأنثروبولوجيا سعيدا غير مكترث بالحالة التي يدرسها ، متمتعا بنتائج بحثه فإنّ أستاذنا مالك كان متحرّقا و متألّما و مهموما بالتفكير في توجيه الفرد و إصلاحه ليصلح به المجتمع ، و مفكّرا في العلل القاتلة للفاعلية عند المثقفين و المصلحين السياسيين و الدينيين .

و مالك بن نبي كان يهمه في بحثه و دراسته الدين الصحيح بين الأديان الذي هو الإسلام قرآنا و سنّة قولية و فعلية (السيرة النبوية) و سيرة الخلفاء الراشدين و العلماء العاملين المؤثرين كما كان يشير إلى ابن تيمية .

إنّ أستاذنا مالك رحمه الله تعالى كان يرى القرآن الكريم الذي هو كلام خالق البشر و منشئهم و خالق المكونات من حولهم فيه هداية للحائرين و تعليم للسائلين و نور للسائرين .. ما على المسلم إلاّ أن يتدبّر في آياته و يتفاعل معها و يُفعّلها في أرض الواقع في كل مجالات الحياة ..فعلى سبيل المثال يقول فيما يتعلق بالقصص القرآني للانبياء ينبغي أن نستفيد عبرة و بيانا و و هدى و موعظة و سبيلا إلى الوقاية من الإصابة بالعلل القاتلة ..فإنّ الله قد أوقفنا على تجربة النبوة من آدم إلى محمد رسول الله صلى الله عليه و سلم .

الخاتمة :

إذا كانت الأنثروبولوجيا لا تستغني عن كل ما يمت لها بصلة من العلوم الإنسانية من تاريخ و علم النفس و علم الآثار و علم الاجتماع و بيولوجيا و غيرها .. فإنّ مالك بن نبي بفطرته استخدم هذه المنهجية لفهم الإنسان الجزائري و إدراك واقعه و تشخيصه علميا و موضوعيا من أجل أن ينقذ شعبه و وطنه بل العالم الإسلامي كله من حالة مركبات الشعور بالنقص إلى الشعور بالذات و الأنا ، و من حالة الذلّة والطمع (اللذين يؤدّيان إلى الخيانة) إلى العزة و الكرامة و من حالة البلادة و الخمول إلى الضمير الحي و الإحساس بالقلق على حالة الفقر و الجهل و التخلف أي من السكون إلى الحركة بالاستخدام الأمثل للوقت و التراب .